آلاء حسانين

العهد الجديد كليًّا

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
نبوءات

العهد الجديد كليًّا

آلاء حسانين

العهد الجديد كليًّا

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات تكوين | نبوءات
TAKWEEN PUBLISHING

الكاتب: **آلاء حسانين**

عنوان الكتاب: **العهد الجديد كليًا**

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-37-3

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com

takweenkw

www.takweenkw.com

@takweenKw

الباب الأول

وأقول لجسدي بأن يسيل مع النهر، وأنتهي

كان العالم يدفن موتاه، حين طرقت لأول يوم بابه، وفي باحة منزله تراكمت جثث الوحوش التي رباها، فردًا فردًا، وحين استشعر هذه اللوعة في قلبي، تركني لأنوح عليهم.

ومن أحداقه استعار الليل سَوَادَه، ومن شجن قلبه صار للّيل لحن حزين.

وأنا، الصبي الذي تخلف عن الحشد الحيّ، الصبي الذي وُجد ملتاعًا، وتركه العالم مثل ذئب يعوي على عتباته. أعوي كل ليل، بكل هذا الحشد الحزين في قلبي، وأبكي ألّا لم أعشه. ويلين العالم لي، العالم الذي رَبَّى وحوشًا ليقتلها، ويلين الله. ويجيء ليحكي لي حكاياته، وأقول: أريد أن أشعر بما تشعر به، يا إلهي، أريد أن أكون مثلك، كاملًا. وأريد أن أكون وحدي.. لا وحيدًا. فالمرء لا يكون وحيدًا إلا حين يوجد له أشباه، ويبتعد عنهم.. وأنا، أريد أن أكون لوحدي، بلا آباء يورثونني تعبًا ممتدًّا ولا دمعًا يتراكم في أحداقهم،

بلا تاريخ ثقيل أَجُرُّه ورائي، وبلا حشد من الأجداد اليابسين، الذين يدفنون في قلبي يَباسَهم .

أريد أن أكون لوحدي، وأنظر إلى حشد البشر الآخرين وأقول: قطيع ماشية، أو سرب فراشات على الأرجح، أو نوارس، أو أي شيء آخر، لا يشبهني. ولا أبكي بُعده، مثل ابنٍ نبت من أحشائي، أولًا.... مثل شيء كنته، وذهب بعيدًا، وأبكي حجم الدروب بيننا.

أريد أن أكون مثلك، بلا إله أشرد حين أبعد عنه، ولا ابن يشرد حين يبعد عني. أريد أن أكون حرًّا، ولا أخاف، ولا أعوي كل ليلة حين يموت إنسانٌ آخر.. وأحسه طيرًا مات من سربي. وأقول، لربما كان ابنًا لم يجئ، أو ربما كان أخًا لا أعرفه، أو ربما كنت أنا، متجسدًا في هيئة آخر، وهأنا مت، وهأنا أبكي رحيلي.

مشيت العمر كله لأصل إليك، ولم أصل.. وقلت، لربما لا يكون موجودًا، ولربما، كان أنا، وكان انعكاسي، أو كنت انعكاسه، فالمرء رب نفسه، وحين يبتعد كثيرًا عن نفسه، يبدأ بتفقد إلهه.. ويتلفت حوله ليقول: لربما هو هذا، أو ربما هو ذاك..

وكنا بعيدين، أنا عنك، وأنت عنّي.. وكنّا بادئ الأمر واحدًا، ولهذا يعذبني انفصالي.

وكان أبي يشبهك، حين كنت صغيرًا، كنت أظنك، في البدء، هو، كنت أظنه أنت.. وكنتُ امرأة، كلما أحبت رجلًا قالت: هو الله،

فالله جميل، كما قالوا، والله، هو الحب، كما قالوا، وأنا أشعر بالله حين أنظر إلى عينيٍّ من أحب..

لكن الرجال الذين عرفتهم، كل الرجال الذين عرفتهم، أطفؤوا وهجي شيئًا فشيئًا، وحين انطفأت تمامًا، قلت يا ربُّ نورني، إن كنت موجودًا، اجعلني أضيء، اجعلني منارة، أو قمرًا. وانتظرت، دهرًا بعد دهر، وكنت أذوب في الليل.

وقلت: قد لا يكون الله رجلًا، وحدقت إلى الغابة. قلت، قد يكون سنونوة، أو سروة، أو سارية.. لكن كل الأشياء تزول، وتذبل، وتنطفئ، حتى الوهج الذي في قلبي.

وكنت مُشعًا، كنت طفلًا مُستعدًا لأن يفرح، وكنت أركض وألعب وأنام. وأقول: غدًا سأصحو، لأركض وألعب وأنام.. وكنت ممتلئًا بالحب، وكنت أقول، حين يسألني أحد عن سر مرحي، إني ممتلئ بالله. والله والحب واحد، والحب والصداقة واحد، أو تكونان واحدًا حين نكون أطفالًا، وقبل أن يصحو هذا المارد في بطوننا.

وصادقت قطيع غزالات وقلت بأني صادقت الله، وصادقت البنات الصغيرات، وحين كن يبتسمن، كنت أعود إلى المنزل فرحًا وأقول: رأيت الله يبتسم.. وكنت مُشعًّا.. وحاول العالم مرات أن يطفئني، لكنني أخذت أحترق، وأشع، وأحترق، وأشع..

وحين رأيت شخصًا يشبه الله الذي في داخلي، أحببته، وقلت:

الله الآن صار شخصًا وصار بإمكاني التحدث إليه، وصرت أسمع صوته.. لكنه غادر ذات مساء، وترك الباب مفتوحًا..

وحين سألني الآخرون عن حزني، قلت بأني ودّعتُ الله، ولم أستطع أن أبكي.. وقلت، ليذهب، إن أراد، لماذا نولد بهذه الرغبة في البحث عنه؟ لماذا نولد بهذه الرغبة في أن نظل واقفين عند بابه، ونطرق، ولا يفتح لنا؟ لم أعرف شخصًا فتح له من قبل، ولم يفتح لي..

وأخذت أسترق النظر من النوافذ وأقول: لربما كان غافيًا، أو ربما كان منشغلًا بإبقاء النيران في الموقد مشتعلة. ولم ألمح طيفه، ومن يومها، والأحزان تترسب في أعماقي. ومن يومها، وأنا أجلس كل مساء على ضفة نهر، وأدعو أن يسيل جسدي معه.

وأنا حزين، وأقول لجسدي بأن يسيل مع النهر، وأنتهي. وأقول بأن النهاية هي ما يتبع الموت، فالمرء يموت أحيانًا، لكنه لا ينتهي. والنهاية مرحلة أخرى، مرحلة لاحقة. وأقول، أريد أن أنتهي.. ألَّا تبقى أنفاسي تسرح في الهواء، وألَّا يبقى جسدي موجودًا حين أغادر أو تبقى ذكراي. وأقول: أريد أن أغادر كلي، حتى لا أظل هنالك، أبحث عن جسدي الذي تركته ورائي.. أو عن أثره. وأضاءت في رأسي فكرة ما، وقلت: قد يكون الله جسدنا الذي تركناه خلفنا، في حياة أخرى، قد يكون الله نحن، ومضينا من دونه.

وتذكرت الإنسان الأول، حين قال شيئًا مشابهًا، عن فردوس

خرج منه هزيلًا ويحن إلى أن يعود إليه، وتذكرت الإنسان الأول، وتوقفت عن احتقاره. ومضيت، لأتبع الله، أناي التي تركتها في حياة سابقة.

وأخذوا يضحكون. يقولون عاد إلى ذنبه الأول، يقولون صار واهمًا مثل كل الآخرين، وأخذ يلحق ظله، صار خطاءً. وها هو يعود ليلًا ويبحث عمن نبذه، عمن أوصد بابه من دونه. لكنني فكرت: قد تكون الأبواب أوصدت من قبلي، وقد يكون أنا الذي غادر، وتركته يبكي ورائي.. قد تكون الذنوب ذنوبي.. قلتها وبكيت. وقد يكون الآن يبحث عني، مثلما أبحث عنه، ويبعدنا الزمن. إذ كيف يلتقي شخصان، أحدهما عالق في الآن.. والآخر عالق في ما مضى؟

وقلت الزمن هو أصل كل خطيئة، فحين أندب شخصًا قتلته رصاصة، لا ألوم السلاح ولا حامله، ولا ألوم الغضب في قلبه ولا التاريخ الطويل الذي يؤجج غضبه. بل ألوم الزمن، ألوم الوقت، ألوم هذه الدقات على الجدار. وأقول: لو أن الرصاصة بكرت مثل الطيور أو تأخرت قليلًا، حتى يدير رأسه يمنة أو يسرة، حتى يزيح جسده بعد ثانيتين، لكان الآن حيًّا..

وألوم الزمن، ألوم الوقت، حين وجدت الله في شخص أحبه، لكنني كنت آتيًا، وكان مغادرًا، ولكل منا كانت وجهته.. وقلت: لو أنني ولدت أبكر قليلًا.. لكنا معًا، نسير الآن في الطريق نفسه.. وغادر كل منا إلى وجهته، أو غادر هو، أو غادروا هم. بكل الشعوب

الحزينة في قلبه، وبقيت جالسًا، أستعير من العابرين طرقًا ووجهات، وأستعير أحلامًا.

وقلت: أعيروني حلمًا وسأمضي خلفه، أعيروني حلمًا وسأركض وراءه، وقلبي خالٍ من الأحلام، وصوتي غير مسموع، والشعب الذي أنتمي إليه، أنكرني، والشعوب تكاثرت في قلب الذي أحب، وأنكروني، وعيناه اللتان لمعتا دومًا لأجلي، نظرتا نحوي كغريب يتطفل، وقلت أعرف قلبك، لكني تأخرت قليلًا، وكنت أعرف قلبك في عُمْرٍ مضى. لكنني لو كنت أبكر قليلًا، ولم يكن الزمن قد عبث بوجهي، لكنت عرفتني.. ولم تعرف. لأنك تعرف شخصًا من شخوصي، تعرف واحدًا مني، والذي ليس أنا الآن، تعرف واحدًا قد يجيء.. وأنا أعرفك كلك.

لكنه ابتسم قليلًا، ولان.. ورنت نغمات قلبه. ثم تذكر الطريق الذي لا بد سيمشيه، ومضى، وقلت: لو أنه لم يبتسم.

ووجدت المسافرين بلا حقائب، وقال شخص ما بأن أحدًا لا يعود إلى هذا العالم، حين يخرج منه، ولا أحد يحب.. ولم أعرف أين سيذهبون، لكني أردتهم أن يعودوا.

وقلت سأبقى وحدي إذن؟ وشعرت بأني حزين، وعويت على أعتاب الله. وقلت: أريد أن أكون مثلك، حرًّا وكاملًا، ولا يؤذيني وجود الآخرين، ولا يؤذيني رحيلهم. وأريد ألا أخاف.. وأريد أن أعرف، وأريد أن أشعر بما تشعر به، وأنت أكبر من الصحراء،

ألست أكبر منها؟ وأنت أكثر إشعاعًا من الشمس، ألا تشع؟ ولم يجبني أحد.

وقال صوت ما، وحدنا وحدنا، وصدقت، وصدق قلبي، وأراني شيئًا ما، وصدقت أكثر، وارتاح قلبي، وقلت الآن أخلع حدادي.. أنا الذي بكيت طوال عمري، ربًّا ليس موجودًا، وقلت الناس حالمون، وضعفاء، ومساكين، ويحبون أوهامهم.

وتحررت، وتخففت، والتفت إلى شيء آخر غير البكاء، وغير البحث، وغير الحنين، وأطفأت الناس في داخلي وأطفأت الموقد.

ورحت أفرح، مثل يتيم، أدرك أنه بلا أب، وأنه ليس عليه أن يبكي أحدًا.. وقلت: أنا الآن وحدي، وليس عليَّ أن أبكي أحدًا، وما من قبر يتحتم أن أزرع حوافه.

لكن أحيانًا، أفكر في الشخص الذي مضى، والذي كنت أحبه، وأقول: ليته لم يبتسم.

وأحس بشيء ما في قلبي، وأقول: قد يكون الله موجودًا، وأردد: بل هو الله، مرَّ فعلًا من هنا.. وليته لم يمر.

أو ليتني تبعته حين مضى، ويؤلمني قلبي، وأحرص ألا أعوي. ليس مثلي من يعوي، أنا أكبر من كل عواء، أنا أنشج فقط، أحيانًا، وحين أحزن جدًّا، أحبس الدمع في قلبي.

وأمضي، حين أحزن بشكل لا يطاق. أبتعد حين أنجرح مثل

فرخ، ولا أحب أن أنزف أمام الجميع، لا أحب الدم حين يكون دمي.. وأبتعد، وأنزف وحيدًا.. وأتمنى لو أقف أمام شخص أحبه، وأقبض عليه يحفر في قلبي، ويدفن أحزان العالم، وأقول: لماذا؟ حتى حين علمت بأن الله لم يعد موجودًا. كنت حزينًا، ولم أقل لماذا! لم أرفع رأسي إلى الأعلى وأقول: لم يا رب؟ وحين أنكرتني الشعوب التي أعرفها، لم أقل لماذا.. وحين مضى القلب الذي أحبه بعيدًا، لم أقل لماذا. وألمح في عينيَّ دمعًا أحيانًا، ولا أقول لماذا.. وفي البعيد، حين أحدق جدًّا، ألمح قضبانًا، وأشك: قد أكون ذئبًا في أَسرِه.. ولا أقول لماذا.. ولماذا أحزن دون سبب، ولماذا أعوي.. وحين أتأكد من كوني ذئبًا في أَسرِه، أحزن جدًّا، وألمح في عينيَّ دمعًا يسيل.

ولم يحبني أحد. كل الذين عرفتهم، أبصروا الوحش النائم في قلبي، ولم يعودوا يحبونني.. وأقول، ما ذنبي، إن كان يغفو في قلبي وحش، يشبه الإنسان الأول. الإنسان الذي يبحث عن إلهه كل حين، الإنسان الذي أوجده أصلًا، الإنسان الذي غادر القارة السمراء أول مرة، كي يجد إلهه.

لكن الوحش الذي في قلبي يصحو، والذين أحبهم يدركونه في الصحو، ويدركون عواءه، ويرون تحت جلدي فراء ذئب وفي عينيَّ نحيب الإنسان الأول وفي قلبي خشونته.

ويقولون: هو إنسان لم يلحق بنا، هو نصفٌ، ما يزال دغفلًا، ولم يتخلص من فرائه ولا من ذيله ولا من شكله الأول، ولهذا

يبحث كثيرًا عن إلهه، لأنه حديث عهد بنزوح، لأنه كان في الجنة قبل قليل، وخرج.

وما يزال الحنين في قلبه باردًا، ولم يطفئه دفء العالم. ولا دفء الأمهات، ولا فرش البنات اللاتي نحبهن، فننسى الله، نتوقف عن البحث عنه، ونقول: لدينا في فرشنا واحد، لدينا في أسرتنا واحدة، وفي منازلنا، يرقد الله مسرورا.

لكنني كنت الدغفل الصغير، وأخذت أحن إلى الغابة، وإلى الله فيها. وإلى الفردوس الذي خرجت منه آنفًا.. وحفظت كل أسمائه، وحين قدمت.. كان العالم قد تغير، وقالوا بأنه مات، وحزنت كثيرًا، وقلت: كنت عنده، قبل قليل كنت عنده، لكنهم قالوا: مات.

ونظرت إلى ساعات معاصمهم، وكانت تحمل زمنًا مختلفًا، وقلت، هو الزمن، فكيف أوفق بين الأزمنة؟ كيف أكون معكم في الزمن نفسه، أو كيف تكونون معي؟

وهناك زجاج يفصل بيننا، وقلت اسمه الوقت، وأردت أن يكونوا معي، حتى يشعروا بالله حين كان حيًّا، وكان في داخلي. أو أردت أن أكون معهم، حتى أشعر بانطفائه، وأحضر امرأة كلما استيقظ الحنين البعيد في قلبي، وينتهي الأمر..

والمساء يزيد من شجني، وأتذكر أحداق الله السوداء، وأقول: كأن الأمر البارحة. وأتذكر وجه الرجل الذي أحب، حين ابتسم لي، ومضى.. وأقول، كأن الأمر قبل قليل.. وأتخيل شكل جنازتي،

وأقول: كأنها الآن. فأنا حزين جدًّا ، وتشبه أحزاني شيئًا من موت.. وأقول: قد يكون الموت في نهاية الأمر حزنًا شديدًا. قد يحزن الإنسان جدًّا فيتوقف عن الحياة، وأنا أحزن جدًّا ، ومن شدة الحزن أحس بأنني أموت، والناس حولي حين يحزنون، يستندون إلى صدور حبيباتهم، وأقول أحيانًا، أريد شخصًا كي أحبه. لكن الناس أغصان، أو أخشاب.. وحين أقول: سأحب شخصًا وأتكئ على صدره، أجده قد تخشب.. وقلت بأنني قدمت من زمن آخر، زمن قريب من الله، وقد ابتعد الآن، وعلقت في زمن آخر، وكل من أعرفهم ماتوا، وأنا أنوح عليهم، وأريد أن أعود إلى زماني.

وكنت طفلًا أيضًا، ذات يوم، وحين أزور طفولتي، أدرك كم كانت شائكة، وكم كنت مشاعًا. والذين غنوا معي وغنيت معهم، قالوا بأن صوتي يشبه البكاء، والذين تحسسوا جسدي وقالوا: نحن أمهات لك. كانوا ذئابًا يبحثون عن لحم طازج، لحم صبية لم تنضب.

والذين ضحكوا في وجهي، كانوا يضحكون عليَّ.. ولم أكن أعرف أن في العالم بكاء ولا سخرية ولا ذئابًا تبحث عن لحم طازج.. لكنني كنت مشاعًا، ولم يحمني أحد.

وكنت وحيدًا، حين كنت طفلًا، وكان بإمكاني أن أرحل. لكن الذين استنبتوني من عدم، كانوا أكثر وحدة، وأشفقت عليهم، فبقيت. وحين كانت توقظهم وحدتهم في الليل، كنت أبكي، ليجدوا شيئًا يقضون ليلتهم لأجله. وعرفت فيما بعد، أن الذين

أحضروني من العدم، بحثوا عن الله طويلًا، وحين لم يجدوا شيئًا، قالوا لننجب طفلًا. وكنت الله بالنسبة إليهم، كنت صوته، وكنت بكاءه. ولهذا يتجمع حزن العالم في قلبي، ولهذا أبكي كثيرًا.. لأن الناس يخبئون أحزانهم في سمائي، ويخبئون دموعهم، ولهذا تتكون السحب. وقلت: لو كان الله موجودًا، فهو أكثر حزنًا منا جميعًا، وأحسست به، وعويت لأناديه. وقلت: سأحمل عنك ثقل العالم، ولم يجبني. وقلت: لا بأس، فالله حزين. وأحيانًا في الليل، حين أحزن جدًّا، أقول بأني على الأقل إنسان، والإنسان يموت في نهاية الأمر، ويبكيه العالم. وقلت، ذات يوم سأموت، وسيتوقف ألمي.

وأحببت الله، لأنه لم يرد للإنسان أن يعاني مثله، ولهذا ابتكر الموت.

وقلت: لو كنت الله، وشهدت ما شهد العالم، لو كنت الله وحملت أحزان الناس جميعهم، لتمنيت أن أموت.

وأحببت الله، وأحسست بأنه أكبر منّا جميعًا، وقلت: حتى حينما صرخ الناس جميعًا وأعلنوا موته، ظل موجودًا، لأجل أبنائه. فربما يستيقظون في الليل، ويحسون بشجن إلى ماضيه وماضيهم، وينادونه، وسيحب أبناؤه أن يكون أبوهم موجودًا.

وبقيت، كما بقي، لأجل الذين أحضروني من عدم.. ولأجل وحدتهم الشاسعة. وتجاهلت العتمة في قلبي، وأخذت أجلس على كل درج وأعوي قليلًا أمامه.

وحين رأوني قادمًا من بعيد، تغافلوا

وأتذكر في الليل عينين حزينتين، وأرى انعكاس حزنهما على الطريق. وأفكر في الظلال.. وأقول هي انعكاس أحزان الليل، هي محاولات انتحاره. فالليل الذي ضجر من عتمته، أراد مثلي أن يموت، لكنه صار ظلًّا. ولهذا لا أقفز، حين أود أن أموت. وأقول، لربما أصير واديًا.. وسأخسر أقدامي. والمرء لا يحب أن يخسر أقدامه، ولا أن يصير واديًا، ولا أن يبقى حيًّا، بعدما يقرر أن يموت.. وأتأمل انعكاس الأحزان على الطريق.. وأفكر في الإنسان الذي يبقى حيًّا، برغم رغبته الشديدة في أن يموت، وأسأل نفسي: لماذا أنا حيٌّ؟

ويتذكر المرء الأمهات حين يسأل نفسه عن سبب حياته، ويقول: حيٌّ لأجل أمي ربما، لأجل حياتها.. وأتذكر أمي، أمي التي غادرتُ في إحدى الليالي من ضجر، أو من حزن، أو من غضب، ولم ترسل أحدًا ورائي.

وأتذكر الحقل الذي كان يعمل فيه شخص يقول بأنه يريد أن

يضيع حياته، ولم يكن يريد أن ينتحر، كان يقول لا، بل أريد أن أضيع حياتي.. وكل حين كان يردد: لم يبقَ سوى القليل، وبعد قليل أغادر.

وأتذكر كل الشاردين، الذين يتجنبون أحزانهم، مثل عدو، أو يتجنبونها مثل صديق، لا فرق.. لكنهم، حين تعترض طريقهم، يغادرون من طريق آخر.

وأتذكرني، حين علقت حبل مشنقة على غصن سروة، وقال الآخرون ربما يتذكر طفولته، أو ربما يحاكيها. فالمرء لا يكون جادًّا حين يعلق مشنقة على غصن سروة.. ولم ننجب ابنًا حزينًا، ولا أحد في المنزل يعوي في الليل، وهذا خطأ لا يحصل في هذه العائلة.

وعلقت نفسي في إحدى المساءات على شجرة طفولتي. وقال الآخرون لمَّا رأوا جسدي يتأرجح، ربما ما يزال يحاكي طفولته، وظلوا يتساءلون: من الممكن أن ينتحر شخص حين لا يكون حزينًا؟ وظلوا يتساءلون أيضًا: كيف تنجب هذه العائلة شخصًا حزينًا؟ وأخذوا يسألون الأمهات إن كُنَّ مع أحد آخر، وقالوا السر معهن، وقالوا دم عكر.. وحين رأوا وجهي يطابق وجوههم قالوا ربما لم يزل يمزح، وكان في عينيَّ ذئب وقالوا: من أبوه؟

وفي آخر الليل قالوا، برجفة خفيفة: اهبط يا هذا، أَخَفْتَ قلوبنا.. العشاء على الطاولة والموقد يحتاج حطبًا، وانتظرت طويلًا، وحين لم يأتِ أحد مع الفجر قلت: سيتعفن جثماني، وهبطت، وكان الجميع يرقصون، وحين رأوني قادمًا من بعيد، تغافلوا..

وأغفلت موتي، أسقطته، وبكيت بكاء خافتًا في القلب. وقلت: لا أريد أن أموت بعد الآن، لئلا يرقص الآخرون على جثماني.

وغادرت القرية التي لا تحزن، أو القرية التي تحزن جدًّا.. ورحت أقول، لم أُرد سوى موت عادي وشعب لا يخجل من أحزانه، فيتجاهلها. شعب لا يسمع صوت أبنائه ينتحبون في ليل معتم ويقولون: أصوات الثعالب..

أردت أن أحزن ويحزن معي أحد.

ومضيت، ورأوني ماضيًا. ولم ترسل الأمهات أبناءهن خلفي، ولم تلحق بي السناجب.. ومر زمن طويل، وعرفت أن الأمهات استذكرنني، وقلن: كان ولدًا صغيرًا يلعب في الحقل ويموت أحيانًا ويبكي حين نرقص على أحزاننا. لكن بقية الأمهات تداركن وقلن: لم نفقد أحدًا، ولم ننجب ولدًا حزينًا، ربما تمنيناه سرًّا، وقالوا، نعم، تمنيناه، وتمسكن بالطمأنينة في النبرات الكاذبة وأعدن: بل تمنيناه.. ولم يتطرق أحد إلى يوم رحيلي.

وخاطبتُ الذئب الذي كانوا يقولون بأن العواء خطيئته، وكانوا يقولون هو الذئب، كلما سمعوا عوائي، وكنت أنشج أكثر، ويقولون، لم ننجب ولدًا حزينًا.. هو الذئب.. وفي بعض الليالي، كان الذئب يتسلل عبر الأحراش، وتلمع عيونه، وأراها.. وينصت لعوائي أيضًا.

مرة وجدت سارية ورحت أعلق عليها أحزاني، وقلت: الآن

أستريح. وكانت بحور قلبي تهيج دائمًا، وقلت: أتوق لأن أستريح.. ولوَّح لي قلب متعب لأحمل تعبه، فقلت: بل احمل تعبي.. وقال قلبي أوسع من بحر، وقال قلبي يحملك كلك، وابتسمت قليلًا، وأشرقت في قلبي شمس، وقلت، لم أعد الآن أريد أن أنتحر. فالمرء لا يكون جادًّا حين يهمس للآخرين برغبة انتحاره، المرء هكذا يعبر عن أحزانه..

وقلت: لأجرب الفرح. وأخذت عيني تلمع وقلبي يزداد شبابًا.. وصرت أخاف، مثل نورس مجروح صار يكبر خوفي.. فالمرء لا يخاف حين يكون حزينًا، وقلت: تؤذيني الأشواك وأشعة الشمس حين تكون حامية قليلًا.. وبالأمس، حين كنتُ حزينًا كانت الحياة تكز بكعب أحزانها على عظمة قلبي، وكنت أقول: لا يؤلمني شيء.

وصرت أخاف، والقلب الذي أحبه كان يلمح خوفي، ويلوح لي كل حين: إني معك. وصرت أخاف أكثر، وتذكرت عتمتي القديمة، وتذكرت نبوءة العراف حين صرح يوم ولادتي، أني سيقتلني سوادي.. ونمت ليلتي أرتجف، وتمنيت سرًّا أن العراف يهذي.

ولم أجد حزني ذات يوم، ولا من يحمله. وقلت: على الأقل لأعرف، إن ابتلعه البحر أو أكلته الذئاب.. على الأقل لأعرف. وعلى الأقل سيبقى لي جسد أرثيه، وقبر أنتحب على رماله.. لكن القلب الذي أحب مضى بعيدًا، ولم يقل أحد أين ذهب، ولم يترك شيئًا خلفه، وكنت مثل مصروع أسأل كل غريب عن رجل يقطر حزنًا، وكانوا

أحيانًا يقولون: مرَّ من هنا شخص يشبهه. ولم أجد أثرًا، ورحت مثل الأمهات اللاتي يشردن حين يفقدن أبناءهن ويقلن: ربما كانوا حلمًا.. ورحت أقول: ربما كان حلمًا..

ربما لم يكن موجودًا، ربما تمنيته أو ربما اخترعته، وشردت أنا أيضًا، وأخذ العالم يسحبني من جديد إلى سواده.. وصرت أغفو كل حين على حزني وأترك الباب مفتوحًا.

ولم أعرف ما قد يفعله الإنسان في الحلم

وأردت أن أعبر إلى هناك، حتى تغيب عن عينيَّ الطرق، وقال الآخرون، أنت إما هنا، وإما هناك.. وصرت تمكث هناك طوال الوقت، وأخذوا يتساءلون: ماذا تفعل عندك؟ ولم أعرف ما قد يفعله الإنسان في الحلم، فالمرء يشرد في أحلامه مثل غزالة، والمرء يقبل في أحلامه أن يكون غزالة أو صيادًا، ويقبل في أحلامه أيضًا أن يوجه السلاح نحو رأسه.

وقد يقبل أيضًا أن يموت وأن يمشي في جنازته، وأن يتخلف عن جنائز من يحب إذا أراد..

ذات صيف مات أحد الآخرين، وكنت أحبه في الصحو وكنت أحبه في الحلم. ومشى الآخرون في جنازته، ومشيت، وبكيت مثل الآخرين على تربته، ولمَّا عدت للمنزل عبرت نحو الحلم ودعوته، وأكملنا ليلتنا كأني لم أدفنه قبل الآن.. وكنت حزينًا، وسألني ما بك؟ وقلت رأيت أنك ميت، وأني أقوم بدفنك، وأني أمشي في جنازتك.

وقال هذه أفكار الصحو، والصحو ليس لنا. وقال أيضًا، اطرد موتي من حولك، فأنا في رأسك دائمًا، وأنا هنا، حيث لا يوجد موت. وبكيت، وبكى، وقال لا بأس، يكون عالم الصحو قاسيًا أحيانًا، ولا يعرف المرء كيف ينجو بغير المنام وغير الشرود. ولا يقدر المرء أن يكون نائمًا طوال الوقت، ولا شاردًا.. ولم أرد أن أودعه.. لكن الباب كان يُقرعُ في الصحو، وذهبت لأفتح، وكان شخصًا لا أعرفه، وقال لي: تركَ هذا لك.. وقال أيضًا لا تحزن، كلنا سنفقده..

وهممت بأن أقول: هو معي، يبكي الآن بكاءً خفيًّا. لكنني توقفت، وكتمت في قلبي أحزاني.. ولم أرد أن أفتح الباب، ولم أستطع العودة لشرودي.

وأتجنب الكلام، فالمرء قد يمتنع عن الكلام أحيانًا، حين يضجره أن يشرح للآخرين سر عذاباته، والناس تعتاد، حين يشرح كثيرًا، ويقولون لا بأس، هو هكذا، معذب دائمًا، ويتركونه في عذاباته.

لكن المرء يختنق بالصمت أيضًا، وبالكلام، ويختار بعض الناس أن يمشوا... فالمشي كلام، والمشي صمت أيضًا، ويقول الآخرون هو يمشي دائمًا، وتهم بأن تقول، بل حزني من يمشي بي، وحزني، وُلِد مشاءً.

لكن يخنقك الصمت ويخنقك الكلام، فتمشي مرة أخرى.

وفي الليل، حين أستيقظ من نومي باكيًا وأتحسس رأسي، أبكي أيضًا، لأن المرء قد يصحو أحيانًا، ولا يجد رأسه في مكانه، وأمشي

بتعب واهن نحو المرايا، لأبصر رأسي، وأبكي، حين يكون موجودًا، وحين لا يكون. وأتحسس أعضائي كلها، ربما نسيت واحدًا منها في الحلم، وأتأكد أن كل شيء في مكانه، وفي صدري فجوة، لأن قلبي يصير أحيانًا صخرة في أحلامي، ويرجم العالم.

ويهتز جسدي، من حين إلى آخر، يتأرجح من الحزن، أو من شيء دونه، أو من شيء أكثر حزنًا من الحزن، فاللغة قاصرة، وأحيانًا، أرغب أن أصف بكلمة ما أشعر به، ولا أجد كلامًا يصف، فالإنسان الأول صاغ مفرداته على مقاس آلامه، والإنسان الأول لم يكن يسقط في الجنون كثيرًا، ولم يكن يستيقظ في الليل باحثًا عن رأسه. لأن الإنسان الأول امتلك سلاحًا، وكانت يده، وكان يستخدمها، فتتوازن عوالم الصحو وعوالم الحلم في رأسه، وحين تخلى إنسان اليوم عن يده، وتوقفت عن قتل الذئب على الرمل، استيقظت في رأسه كل ذئابه.

وأقول: أريد شيئًا يعبر عن هذا، وأشير نحو قلبي، ولا أجد شيئًا. فأقول بأني حزين، حين يسقط المطر وأقول بأني حزين حين يصبح العالم أرجوانيًّا وحين يتعثر شخص في الشارع. وحين أود وصف الطاحونة التي تطحن قلبي، لا أجد شيئًا يصف.. فأستعير الحزن، ويقول الآخرون لا بأس، هو حزين وحسب، فكل الناس تحزن أحيانًا، وأقول بأني حزين بشكل آخر، حزنًا لا يشبه حزني حين يكون العالم أرجوانيًّا أو حين يتعثر شخص ما في الشارع. ويقول الآخرون لا بأس. وأعرف أني لست حزينًا.. أنا أشبه شيئًا آخر،

أكبر من كل حزن. أنا صدئ، وأعبر نحو الجنون، وأشعر برغبة في أن أكسر ساقي.

والجنون محض حالة، مثل الحب، ومثل الحزن، ومثل المرض. فأنا أُجنُّ أحيانًا، وأحيانًا قد أعود، وحين أكون هناك، أكون نفسي، وحين أعود، أكون ما يريد الآخرون.

ويشبه الجنون، أكثر ما يشبه، صداع الرأس، لكنه ينتشر في أعضائك كلها، فحين أكون مجنونًا. أشعر بالصداع في قلبي وفي مفاصلي وتحت أجفاني. وحين أكون مجنونًا، أبدأ بالارتجاف من شدته، وأبدأ بالنشيج ويشتد الألم في خلايا الدم.. وأرمي برأسي على الحائط فيتهشم، وألقي بجسدي أمام كل عربة وأجمع أشلاءه، وأعير خوائي لشبق الآخرين فيملؤونه ألمًا صدئًا يشبه ألم الخلق. ويترنح جسدي بعد كل ليلة وأقول: تؤلمني أعماقي.. وللمرأة عمقان، وأكون امرأة أحيانًا وتؤلمها أعماقها. يؤلمني عمقي حين أشهق وحين يشهق أي إنسان آخر، ويؤلمني، حين يولد إنسان أو حين يموت، عمق بدء الخليقة. وحين يهبط المطر وتنبت الأرض، أحس النباتات تخرج من أعماقي.

ولهذا أنوح، حين أكون مجنونًا. ويحدث هذا، فيما يحافظ إنسان الصحو، على مظهر رزين.

وأعود أحيانًا، وأعلق هناك طوال الوقت، ويقول الآخرون بأني خائن، وينظرون إليَّ كدخيل.

وأحيانًا يقولون: توقف عن الحلم، أنت تخون واقعنا الحزين.

وأحيانًا يقولون: خذنا معك. وأحيانًا أخرى، حين أكون مجنونًا جدًّا وأقتل نفسي في الداخل، أبكي عليَّ. فيتسلل من عينيَّ دمع، ويراه الآخرون، ويسألونني: ما الذي تفعله، فأجيب أحيانًا: أدفن نفسي.

مثل ذئبين ينبذان عواءهما، كأنه جيفة

ويبعد صديق ما، ينزوي في ظله. ويقول: حين أسأله عن سبب هذيانه: أذهب أنا أيضًا، إلى هناك كثيرًا. وأصمت، لأني أعرف كيف تبدو الطرق وأعرف أكثرها وحشة، وأعرف حزن الوحيد حين يمشي العمر كله على قدميه، وحين يعتم مثل الليل، ويكونان واحدًا، وحين يجلس ساهرًا يدخن أحزانه.

وقلت: أعرف أنك متعب.. ورأيت على قميصه دمًا دافئًا. وعرفت أن القلب يطعن نفسه. وهممت بأن أقول: قلبك يبكي. لكن تذكرت بأن المرء لا يحب كثيرًا أن يقف أحد على أحزانه.

ومشينا مثل ذئبين ينبذان عواءهما، كأنه جيفة، ويستنكرانه، وكنت أتقدمه أحيانًا، وألمح قلبه.. وأشرت مرة: هذا دمٌ كثير، وفكرت، أي كمد يقتل الآن صاحبي، وأي حزن يلوي ظله، وحدقت إلى الأفق وفكرت أيضًا: كيف يمكن أن يموت الإنسان منتحبًا على قارعة الليل، وتشرق بعد ذلك شمس؟

وقلبي يخاف، من المضيِّ ومن المكوث. وأتمنى حينًا لو أني عتبة لا تضطر أن تدخل أو تخرج. وأتمنى لو أني شيء، أي شيء لا يكون حيًّا ولا ميتًا.. وأنظر إلى صاحبي وأقول لنفسي: نحن الآن واحدًا، مثل المرء وظله. لكن أحدق إلى الطريق الطويل، وأفكر أن صاحبي قد يموت يومًا على قارعته، مثل إنسان آخر.. وأن المرء لا بد سيعود يومًا إلى يتمه الأول، وأخاف مرة أخرى.

الباب الثاني

الأمكنة تفقد وهجها

لم أعرف بأن الأمكنة تفقد وهجها مثل البشر. وأن الزمن الذي يترسب فوق الجلد يترك عذاباته فوق الكراسي أيضًا، في اهتراء حوافها وفي الأسماء المحفورة في الخشب، الأسماء التي ما عادت تخص أحدًا.

لم أعرف أننا قد نمر على الوجوه، وعلى الأمكنة، ونتساءل بعد زمن: كيف ألفناها؟ وأن الأصحاب، الذين باتت قلوبنا عارية في دفء أكفهم، مرَّ الزمن عليهم أيضًا، وصارت قلوبنا تخجل من ذكرى تكشفها أمامهم.

الإنسان وحيد، ويمتد أمامه الضياع شاسعًا، ولا حدود لضياعه، فالداخل والخارج شكلان متماثلان للضياع ذاته، ففي الغرفة الدافئة، قد يشعر المرء بذات الضياع الذي يشعر به في ليل البراري.

والذئاب التي تعوي في السهول هناك، تعوي في قلبه أيضًا.

ماذا سيحل بنا؟

نحن الذين لا نرى في الحلم سوى منازل بجدران مهدمة، وآباء يتلاشون حين نتمسك مليًّا بأكفهم، وأصدقاء يذهبون في أية لحظة..

وبنا نحن، بقلوبنا الشاردة، وأدمغتنا التي تهوي في جنونها كل حين.. بأنفسنا التي نخافها.. وفي الليل، حين توقظنا الصور المتخيلة لأمهات زرقاوات، نتمنى لو أننا محض غرفة نفتح بابها ونهرب بعيدًا.

ماذا سيحل بنا؟

والعالم المجنون يدفع بأبنائه إلى الهاوية. ونحن جزء من الحشد، مهما أغلقنا أعيننا وصلينا بخفوت ألَّا نكون كذلك.. وحين يجيء دور هذا الشعب ليدخل إلى أفران الغاز.. سندخل معه أيضًا.

كُنَّا خِفافًا، صبية بأمزجة متعكرة، نرفض لطف الآخرين، ونرفض الاصطفاف بأدب في طوابير المدارس، ونرفض تزرير قمصاننا ونظن بأننا هكذا تغلبنا على العالم.

لكن الزمن مر علينا أيضًا، وتمددت ظلالنا، وركعنا بأدب أمام عتبات العالم، نتسول منه أيامًا إضافية. قليلًا بعد، نريد العيش أكثر، قليلًا بعد، نريد أن نكبر أكثر.. ومهما كانت حياتنا غاية في الضآلة فإنَّا نريدها. نريد كل شبر فيها. نحبها.. الأغلال في قلوبنا وشهوة التعلق بما ليس عظيمًا. بما هو ملوث وما هو عابر، وما يلمع بمكر.. نريد البقاء، والأصدقاء الذين لا تلمع حدقات

عيونهم حبًّا، نريد بقاءهم أيضًا، فإن المرء منا حين يُترك وحده قد يأكل نفسه هلعًا.

ماذا سيحل بنا؟

نحن الذين لا نحزن جدًّا، ولا نفرح جدًّا.. ولا تعصف قلوبنا، ويموج البحر فيها فيغرقنا، أو يدلنا شيء ما، شخصًا كان أو ضوءًا أو إلهًا قديمًا على طريق واضح نسير فيه.. نحن الذين نتوه بين الطرق، وبين الرغبات، وقد قطعنا كل هذا العمر الطويل دون انتباه، كأننا حجارة تسيل مع النهر، ولو قالوا لنا أن نكون أشخاصًا آخرين لَكُنَّا، ولو طلبونا أن نبدل حياتنا لبدلناها. وفي حال رأينا أجسادنا يرتديها الآخرون، لم نشعر بالحنين، ولا بالفقد.. وإذا سرقت حياتنا ذات يوم في الزحام، لراقبناها بملل وهي تُسحب بعيدًا..

لم نبكِ على الأصحاب الذين ماتوا، ولم نغضب من أولئك الذين خمد الحب في قلوبهم، وراحوا.. وقد كُنَّا صغارًا نقول بأننا قد نموت، في حال أشرقت الحياة على يوم ليسوا فيه. لكننا لم نبك، ولم نحزن، ورأيناهم يغادرون إلى البعيد ولم نقل لهم وداعًا..

وراقبنا الزمن وهو يمر فوق الحب فيطفئه. وفوق أجسادنا فتتجعد بفعل الوقت، ويموت الحزن حين يصبح المرء أقل شبابًا. وتموت الرغبة، ويموت الرب أيضًا، وحين يبكي شخص كبير أيامه الفائتة فإن قلبه ما يزال طفلًا، وما يزال عالقًا في زمن مضى، وحتى يموت المرء دون ألم، عليه أن يموت أولًا في حياته.

ماذا سيحل بنا؟

والأصدقاء الذين رافقوا حياتنا يغادرون تباعًا. منهم من يتوحد في قبو مهجور ويخاف الضوء، ومنهم من شدة حزنه ما عاد يشعر بشيء آخر، ولا بأحد آخر.. والآخرون الأقل تعبًا، يهرمون في مكاتبهم، وقد وأدوا كل حي في قلوبهم، وتجمدت ملامح وجوههم منذ زمن بعيد.

وحيدون نحن. وحياتنا متعبة، وكلما استندنا إلى قلب تهدم، وكلما أشرنا إلى أحد ليحملنا، أو أحزاننا، مر من أمامنا سريعًا.. والقصائد التي تلوناها كي ننجو من ضجيج الحشد، من الضحك المتطاير والحزن المتطاير، ما عادت تواسي أحدًا. والآلهة التي صلينا إليها برجفة، تركتنا نموت من الخوف، ومن الوحدة، وكل إله قد هجر شعبه ورحل بعيدًا..

ماذا سيحل بي؟

والظلام الذي ولدت فيه ما عدت أألفه، والآخرون الذين اختبأت لوقت طويل تحت عباءاتهم.. سحبوها عن جسدي، ومضوا.. والغريب الذي عرفته قبل أن أحدثه، واحتميت بظله.. هأنا أشعر بالبرد في حضرته.

وأقول لوجهه: كيف ألفتك سلفًا؟ وأقول لقلبه: أين مكاني؟

وأقول لأحضانه التي طالما اتسعت: لماذا تضيقين؟

وقلبي غابة تحترق. ويبعد لهيبها الآخرين عني، فيفرون مثل غزالات تتبع ظلها، وغريبي يجلس وسط اللهب، ويحترق، ويموت من أجلي، ولا يؤثر هذا فيَّ.

أردت عذابًا أخف وطأة، وبلادًا لا أكرهها. بلاد لا أحرق أعلامها من قهر، ومن يتم..

وأردت أمهات يزرننا في الحلم فلا نفزع، وعالم دون آباء، أو آباء لا يكفنون بناتهن، ولا يتركون نظراتهم تعلق فوق مفاتنهن، ولا ينتهكون بوعي أو دون وعي هذا الشباب وهذا الحسن..

أردت طفولة أقل خوفًا. وليلًا لشيء آخر غير اجترار الحزن وتكرار الرجفة دون أمل في السكون، وأردت عشاقًا لا نستيقظ بجوارهم في الأسرة فنهلع، وبأجفان شبه مغلقة نحاول بعد الصحو أن نتعرف بجهد على وجوههم..

وأردتك يا صديقي أن تبقى أبدًا، وقلت بأنك باقٍ، ما بقي البحر، وما بقيت المراكب في شردوها. وما بقي الموج، الذي يذهب ويجيء دون وجهة.. وقلبي لم يكن يؤمن.. وقلت سأصحو يومًا وقد غادر ظله، وقلت سأصحو يومًا آخرَ وقد غادر بعضه، وسأصحو يومًا جديدًا وصديقي كله ليس موجودًا..

وحياتي لم توجد بميل إلى العتمة. لكني أؤمن أن النهار لا يبقى أبدًا. وأن الأكف التي تدفئنا الآن سيؤلمنا غدًا ارتجاف بردها.. والأصدقاء الذين يهذرون لأجل البقاء يغادرون أولًا..

وعيونك يا صديقي هذه جمر، لا بد سينطفئ.

فهيَّا غادر الآن. غادر وأنت مشع. غادر وأنا أبكيك، غادر قبل الغروب، قبل أن يحل الليل، حين يستلقي جسدك بجواري منطفئًا، خاويًا من الحب، ومني. وقبل أن يموت ما بيننا، فيستبدل القلب ما يحويه، بالحسرة.. غادر وأنت حيٌّ، وقلبك حيٌّ، ويحملني، لتبقى في ذاكرتي حيًّا أبدًا..

العبور نحو خيام الأمهات المضيئة

كانت لديَّ أنا، ذات يوم، ربيتها مثل غزالة في المهد. وكنت أحضر حول سريرها، لأقتل الأشباح التي تتراكض تحته، وكانت باكية دومًا، لكنها كانت موجودة.. وكنت أراها، تتزين في الصباح أمام مرآتها، وأبتسم في سريري.

وأضعت أناي ذات يوم، أو ضيعتها. واستعرت أقدام الآخرين لأجل المسير، واستعرت أنينهم، واستعرت حزنًا بسيطًا، لأبكيه في الليل، واستعرت أجنحة غراب وأقدام غزال، استعرت جسدًا أتخيله، حين يتحدث الآخرون عني. وحين أقف أمام المرايا، لا بد سأرغب بشيء، أي شيء، ينعكس على زجاجها، لأقول: هذي أناي.

وأخذت أتذكرني، حين كنت مارًّا من هنا ذات يوم، وتذكرت الأمكنة التي أحب، والأنهار التي بكيت مرارتها طويلًا، والشوارع التي قطعتها ماشيًا، أو راكضًا، أو هاربًا من ظل ما، أو

إلى ظل ما... والعمر الطويل الذي مشيته حتى فنيت خطواتي... والمرء، حين تكون له نفس، وتفنى، يفتقدها في الليل، ويقول: كانت تؤنس وحدتي.. وهذه الأجساد الباردة التي تقاسمني ليلي، من أتى بها إليَّ؟

وهؤلاء الغرباء الجائعون إلى أجساد الصبايا، من غيري، أحضر الذئاب إلى مهد خرافه؟ وأنا، بعدما ودعت نفسي، صرت أعكف أمام كهف الذئب، وأرقبه يقاوم نومه أمام الموقد، وصرت أحتمي معه، من الليل الطويل.

ويتغذى الذئب، بدفء، على جسدي النضر، وأنا أصرف وجعي دامعًا. وأقول: يؤنسني عواؤه، ومخالبه هذه قاسية قليلًا، لكنها في النهاية يد، تمر فوق جراحي.

ويدلق الذئب ماءه فوق جسدي، وأصرف وجعي باكيًا، وأقول: هذا نهر، وجسدي أرض طيبة. ويسحب هذا الذئب الدم من عروقي، ويفقأ القراب في جسدي، ويعبر بي، إلى أراضي الأمهات التعسة، وأصرف وجعي، باكيًا، ودمي يخضب سيقاني. وأقول: لا بد سيخرج المرء من رداء الطفولة، وأنا خرجت، باكيًا نعم، لكنّي خرجت.

ويدي ترجف: لو بقيت طفلة لوقت أطول، ما ضرني؟ فلهاث الذئاب الباسمة فوق جسدي ليس أمرًا محببًا. وأظافرهم التي تنشب في خاصرتي، حين تصرخ في صدورهم روحًا بهيمية، حين أستلقي

مشدوهًا وهم يلعقون بنهمٍ جسدي.. لا، بل يسحبون عبيره، بكل ما امتلكت الأرواح البرية من شبق.

وأنا، من شدة الفزع أقول: اتركوا لي شيئًا، من عبير طفولتي، لأشمه. واتركوا لي، موضعًا واحدًا من جسدي، لم تلهثوا فوقه، كي لا أعف عن لمسه، فهذا جسدي، في البدء والخاتمة، وأنتم سوف تمضون إلى حياتكم، وأنا سأظل، برفقته، أغسله مرارًا، ليستعيد نقاءه، وأمرر يدي الراجفة عليه، وتعافه. قد مرت من قبلكِ أيادٍ كثيرة، وقبائل بربرية حملت معها كل بريقه.

فاحمل جسدك، أرضًا يابسة، احمل جسدك مقبرة، واحمل طفولتك الباقية، تلك التي سلمتها بنفسك، مثل أب، يرسل أصغر بناته إلى بيت مغتصب..

احمل طفولتك الراجفة، التي سلمتها لذئاب بعيون عسلية، وامسح مياههم الدافقة -زبد البحر- عن أثداء الطفلة الحزينة، طفلتك، ولا تنسَ، فهذه البراءة التي قتلتها في المهد، ستصحو في الغد ضاحكة، لكن شيئًا ما في عينيها لن يعود ليلمع مثلما كان من قبل. وجمر الطفولة النابض بالحياة، لكأنما أطفأته، ببرودة كفيك. ولا تنسَ، فهذه الطفلة التي سمتك أباها، لن تعود لتطلع إلى عينيك بنفس النظرة اللامعة.

ونام.. كأن هتاف المنافي أغنية

كن مطمئنًا، فالطفل الذي خرج في الظهيرة حافيًا، وقالوا: ما من وجهة يمشي إليها، وسيعود حين التعب. مشى طويلًا، وربما كان يقصد إلى البحر، أو يلحق شمسًا تغيب كلما وصل إليها.

وقالوا بأن الحياة ابتلعته. وبحثوا عنه في شباك الماء، وفي القوارب التي تتأرجح على الزرقة. وحين خضبت الأمهات الرمل بالدم، حدقوا طويلًا إلى عيون أبنائهن، وقالوا: لربما ندم قليلًا وعاد.

وربما تنكر، خجلًا من الضياع، وعاد.. وبحثوا تحت ظل الشجر الوارف، وتتبعوا أوراقه التي تهرب بعيدًا، وقالوا: هو أيضًا، مثل الخريف، يركض يابسًا، ويتعكز على أيامه، وقد يدلنا الخريف عليه.

وتألموا لطفل بمثل يبَاسه، وقالوا: قد يكون طفلًا نعم، لكنه مثل الخريف، يريد الفرار إلى البعيد.. من المنزل المتصدع، والأمهات الحزينات اللواتي لا يؤوين أحدًا.

الأمهات اللواتي يحببن حقًّا أبناءهن، لكنهن أكثر خوفًا من أن يربتن على طفل راجف.. والآباء الذين أوصلوا أمهاتنا باكرًا إلى تجاعيدهن، إلى أيامهن المكرمشة، ودلوا الخوف على جذع الطمأنينة في قلوبنا، فجاء ليحطبه.. والطفل الحافي فرَّ بعيدًا عنه.. وقالوا، لن يصل.

كن مطمئنًا، فالطفل الذي وضع قلبه المتعب في سلال الخبز، وحين قالوا: لن يصل، كان يعبر بحرًا، ويعد أيامه الباكية.

وينظر إلى البعيد فيرى حياة شاسعة، وقلبه في سلال الخبز تأكل منه الطيور، ويسأل أيضًا: كيف سأصل؟

وحين هبط على الرمل، استبدل بالأحذية الطريق، وتأسف لنفسه قائلًا: هو الطريق حذاء واسع.. وحين فاجأه الشتاء دون باب يغلقه وينام، تأسف لنفسه مرة أخرى وقال: أيها البرد، كن رحيمًا بارتجاف اليتامى. وحين أنكرته المنافي، مال إليها قليلًا، وقال لقلبه: ترنم.. ونام، كأن هتاف المنافي أغنية.

فكن مطمئنًا، فالطفل الذي رأيته ذات يوم في الزحام، وقلتَ بأن زمنًا طويلًا قد مرَّ، ورأيته يسدل أيامه شعرًا شائبًا فوق صدره.

وقلت بأن الطفل قد كبر كثيرًا، واهترأت أقدامه، من كثرة ما مشى.. وسألتَه، كأنك عابر، عن الوصول، عن منزل يغلق بابه عليه، فأشار إلى بيت هناك وقال بأن المرء يصل ليرحل تارة أخرى، وأن الإنسان في بيته قد يرغب أيضًا بالمغادرة.

وحكى عن ليل يبحث عنه، يكون أقل حدة، وعن بيت لا يستغرق الوصول إليه خمسين عامًا. وأشار إلى بياض قلبه، وعرفت بأن الطفل، مع هذا، لم يصل.

وتبعته في كبره، كأنك تتبع طفلًا ضائعًا، وتذكرت الأم التي اتسع الليل في حدقاتها، وتلمست أكفًّا كثيرة، لتجد طريقها إليه، والبحر أبعد مكان لضياع طفل.. وقالت: مؤكد لن يذهب أبعد..

لكن الطفل قد عبر بحارًا كثيرة، وتبدلت أسماؤه، ووصل حافيًا إلى خمسينه، وتعلم لغات المنافي، واحتضن برودتها وقال: أمٌّ باردة، لكنها أم..

وظل، برغم مضي العمر، يفر كل حين من بيت الطفولة..

وكان يمكن اعتباره ناجيًا، لولا أن الطيور ما تزال تنقر قلبه، الملقى هناك في سلال الخبز.

رأيتك، تناديك الغزالات التي يقتلها شرودها

يهمزك الرحيل، أيها السيد رفيق الوادي.. يقول اتبعني، ويهتز قارب مربوط على ضفة النهر. وتهمزك الطيور التي تخبئ نهارًا متعبًا تحت جناحيها.. وتهمزك الأعماق، والألم المتواري في قلبك، والنهر الذي يشير إليك، باهتزاز الماء.

يهمزك الرحيل، أيها السيد الذي يجر النهار إلى آخر الوادي هناك، ويحبسه في كهف مظلم، ويخيفه من نفسه.. وكلما أومأ النهار برأسه خارجًا، وزحف قليلًا، رمى صخرة على أطراف ظله ليثقل خطوه، كيلا يطلع مرة أخرى..

رأيتك، تناديك الغزالات التي يقتلها شرودها، ويناديك ماء النبع الذاهب بعيدًا، يناديك كل ذاهب إلى البعيد. وتقول لك الأيام الباقية اتبعني.. حان الوقت كي تُشيِّع جرحك، أيها السيد.. وفي جيبك تخبئ فرخًا صغيرًا، تسميه حياتك، تطعمه في الظل وتُسكِت شدوه..

وكلما حنَّ إلى الأفق البعيد همست له بأن المدى أكذوبة، وأن الأفق يرمي بالطير بعيدًا عن أعشاشها، فوق التلة الباردة.

يناديك المدى، وتشجنك السماء بالزرقة، وترنح القوارب التي يحملها الضباب نحو مراسيك، والظلمة في محاجر أمك، التي عرَّفتك على وجنتي الحياة باللمس.

وبأصابعك اللبنية أخذتَ تعد سنواتك الباقية.. وفي الظلمة تلك أوقعتَ سنوات كثيرة، وصليت كي تجدها أمك.. وفي صلاتك كان شقاؤها، في أمنياتك الطيبة كان اهتراء العظم.

والندامى الذين خبؤوا أنخابهم أعمارًا لأمهاتهم، أخطؤوا أيضًا.. وخلف الستائر سمعت الأمهات أمنيات قلوبهم وبكين.. وأردن أن يقلن: لا. وتمنين بأن يهمسن في أذن الرب سرًّا كي يحملهن عنده.

ورأتك أمك في سريرك ذات يوم، وتأملت السهر الغافي، وقدمت خطواتها.. وقالت -تقتل ذنبًا ستوقظه في حجرتك-: قد يجد امرأة أخرى، بعد سنوات، وتكون أمه في الليل، ويمشيان معًا نحو تلك الشجرة.

وابتسمتَ لها نائمًا، عندما كانت تقدم خطوها، وظلت واقفة تفكر طويلًا..

لكنها عاشت، وبقيت لسنوات تتكوم في الركن، وتكتفي بالإيماء ردًّا للتحايا، ومع الوقت، أتعبها الإيماء أيضًا، وعندما أتعبتها الحياة كثيرًا، تلاشت، مثل الظل، شيئًا فشيئًا.

وفي المنزل القديم، ثمة بقعة سوداء ملتصقة بالخشب، كأنها أثر لحرق قديم.. كانت في يوم أمك.

وسرتَ، خلف الله الذي يرعى شعبه، ويعده عند الغروب، وينساك.. أو يتركك للذئب، يهادنه: اترك نسلي الباقي.

ومشيت يومها نحو الهاوية تعد الخيانات، أمي بقعة ظل، وإلهي الرحيم، تخلى عني. ورآك الليل تتوارى بين الشجيرات، ولم يلحق بك.. وعندما مر بمحاذاة ظلك، خلَّفه ناقصًا..«ظلي قد علق بك، وامتزج سوادينا» ولم يأبه.

والرياح القادمة على خيول سوداء أخذت تستريح في بهو قلبك، وتستريح شعوب الله، ويدفنون خيولهم الجريحة، ويعلو الصهيل، وتعلو طلقات البنادق، ورحت تئن بحذر -خائفًا أن يسمعوك-: لقد استعمروني.

وتركتَ ابتسامات قديمة مصيدة للفرح، وراقبتها من وراء النافذة زمنًا طويلًا.. وذبحت حمامات بيضاء أمام بابك.

«هنا منزل سعيد أيها الحزن، فلا تعبر».

وصنعت من ورق طفلة وأما تغني لها، كي تخدع الحزن البعيد..

«لديَّ أطفال أيها الحزن، فلا تحضر هذه الليلة.. ربما في الغد». وحينما ينحسر ظله تجلس خلف الباب وتبكي، ويردد قلبك: ليمكث معنا قليلًا.

وتخبئ طفلتك الورقية في الأدراج، وتخبئ أمها.. وتشرب وحدك، طوال الليل تشرب وحدك.. وحين يستيقظ النهار على عينيك تنهض منتصرًا: مرت ليلة أخرى.

وهكذا نجوتَ، صادقتَ في طفولتك دُمَى قبيحة وأحصنة من خشب.. والآن تنجيك القصاصات، وتبقيك في مأمن.. من امرأة تداهم قلبك بالحب، أو طفلة تمكث لأجلها، حتى تشيخ..

وتتذكر أمك التي صارت أثرًا لحرق قديم. ويهمزك الرحيل، وتتأمل فراغ البيت، والسهر الغافي، وأسرة الأطفال الفارغة، الأطفال الذين لن تجيء بهم.

وتسألك نفسك، عن الذي يربطك بالأرض، وعن جسدك الذي يترنح في ردهات الحياة: قد مروا من قبلي، وحيدون وحزانى، وموتى لم يهنؤوا بالوصول.

وتناديك القوارب البعيدة، وينبذك ليل المدينة المضيء، وتمنيت لو تكون جسورًا، كي تأخذ الحياة إلى ساحة، وترقصان.. كي تجاهر بالفرح العابر، بدفء النساء الحقيقيات، وبظلالهن الحقيقية، حين يطرد الحزن المتجسس وراء النوافذ..

وتمنيت، أيها السيد، رفيق الوادي، كلما همزك الرحيل.. أن تقول بأنك حيٌّ، وأن في الحياة، شيئًا يخصك..

هل ترون هذا الماشي هناك بين الينابيع، يقود سرب جنادب ويطارد ظله.. بالله، هل ترونه؟ إنه أنا، حيٌّ وباقٍ..

ونظرت إلى قدميك الحافيتين، وعروقك التي تزداد زرقة، وتمنيت، أيها السيد، وأنت تترك المدينة خلفك وتسافر نحو المدى، أنت تجد أمك في الظلمة البعيدة، أن تجد هناك شيئًا يخصك.

الباب الثالث

عرائس الدمى الصغيرة

تضيق بنا الحياة، تضيق. نحن أبناء العوالم السفلية والحانات القذرة والأمهات القاسيات. الأمهات اللاتي وضعننا في الظل، عند الفجر.. كاتمات بكاء الوضع، كاتمات مجيئنا، نحن السواد القبيح تحت عينيِّ العالم.

حبونا نحو الحياة، في المنحنيات الضيقة، حاملين تقرحات ركبنا وقلوبنا.. نظرنا إلى الشمس في عينيها ومضينا نحبو، نحو الحياة.. التي كانت تتراجع مع الغروب.

***

تحسسنا سيقاننا المثنية، لمَّا أتعبنا حبونا الطويل، وقلنا: نغرسها في الأرض ونضيء.. نزرعها في الطين، ونثمر.. نجعلها خشبًا تتهدل الوحدة على كتفيه، وننادي الغربان.

مشينا وحدنا، دروبًا طويلة.. رأينا الماضي البعيد يُعرض مثل الحلم، على جوانب الطريق. وجدنا آباءنا يضاجعون أمهاتنا في

العتمة وبكينا. قلنا: نعبر هذا الحد الفاصل بين الآن والماضي، نحمي أمهاتنا، ولا نجيء. قلنا، لا نريد المجيء.

لكن أمهاتنا، عرائس الدمى الصغيرة.. الآبار الموحشة، التي يفرغ فيها العالم الشبق انتصارات فحولته. أمهاتنا اللاتي يطفحن أطفالًا وأحزانًا ويفضن.

أمهاتنا، أيها العالم الشبق، ينجبننا بدل الدموع.. يصيِّرن ماءك الحار أشجارًا تنبت في ترابهن.. أشجارًا لا تسقط أو تميل، أشجارًا مغروسة في عمق أرحامهن.

كانت السماء مرايا لنا، نظرنا إلى وجوهنا في الغيم، وظننا أنفسنا أمهاتنا. قلنا: هؤلاء أمهاتنا حوريات السماء. لوحنا للغد وقلنا: أمهاتنا الملوحات. حركنا أكفنا يمنة ويسرة وقلنا: أمهاتنا يقلدن حركات كفوفنا. عبسنا في وجه السماء ورأينا أمهاتنا يعبسن، وقلنا، لكن أمهاتنا، لا يعبسن.

أخفضنا رؤوسنا وحدقنا في سيقاننا الرملية، في الهاويات العميقة.. وقلنا: نحن بنات إذن؟ وفي الأصابع.. رأينا كل إصبع قضيبًا وقلنا نغذي جوع العالم.. الذي يفتح فمه عبر كل مسامنا، ويبكي، مثل رضيع.. الجوع للأمومة وحليبها الدافئ.

تفحصنا أجسادنا وقلنا: نحن انعكاس أمهاتنا، نحن بذور استسلامهن للعالم.

صرنا دُمًى صفراء وقلنا: نؤدي أدوارنا. استلقينا مثل بنات

صالحات وفتحنا أرجلنا للعالم. وقلنا، هو أب.. يفعل ما يشاء. ليغرس نقمه في قلوب بناته، لا فرق.

كل بنت، هي تجسيد لرغبات الأب، هي المرأة التي يريد، ولا يجد.. قلنا لا فرق.. كل رجل لا يجد أمه في النساء ينجبها. كل رجل ينجب من يتمنى ولا يجد.. من يرغب أن تحتضن جذوعه.

حبلنا بأبناء آبائنا ووضعنا حزنًا مشوهًا.. لفظنا قلوبنا، وخنوع أمهاتنا مع الولادة وقلنا، هذي الحياة التي لا نريد.. فكيف تبدو الحياة التي نريد؟

مشينا مسافات طويلة في الليل، وَأَدْنا الرغبات في أعماق أرحامنا، وانعتقنا.

لوينا أعناق أرحامنا، ومثل جرار مثقوبة، حملناها على ظهورنا وأضعناها.. لمَّا أردنا الوضوء للصلاة.

***

توضأنا بأبنائنا؟ قلنا ربما.. برغبات آبائنا المحشوة في القِرَب؟ قلنا ربما.. توضأنا بماء حياتنا.. لكنا توضأنا.

لمن نصلي الآن؟ والسماء عطاس محتشد والسحب فوضى كيميائية والمطر يهطل من ضجر.

لمن نصلي الآن؟ والفراغ أكثر اتساعًا مما مضى، والأرض رَبَّة حزينة والدنيا سواد بارد.

لمن نصلي الآن؟

ونحن لم نهبط من علوٍّ ولم تكن لنا اصطفاءات قديمة.

لمن نصلي؟

أيها الماضون نحو الفجر، نحو الحياة التي في الشمس، والشمس لم تعد إلهة والقمر صخرة متعبة.

السماء هلام، يا آباءنا الدخيلين إلى بيوتنا.. آباؤنا الدخيلين. بعكاكيزهم وأكفهم الجافة، التي تطرق فوق الأبواب في الليل وتنادي: تعالوا.. يا بنات الليل تعالوا. يا بنات الهرم الذي في وجوه أمهاتكن تعالوا.. أمهاتكن أغلقن كل الطرق نحوهن، ونمن، قاطفات أثداءهن.. ومثل الأجنة، نمن، بأرجل مضمومة.

***

تعالوا، يا بنات الليل، يا بنات العتمة.. تعالوا.. فالحياة شاسعة في الخارج، والآلهة القديمة غادرت.. والرجال الكثيرون يبكون أمهات قديمات وأرامل.

الرجال الكثيرون يريدون ربة، من أصلابهم، تهدهد الطفل الحزين العاري. تمسد قلبه وتلقمه كراتها، تسكن وحشة العالم في قلب الأب، الأب الرب، الأب الطفل. تعالوا.. فالرب حزين ووحيد.. تعالوا، فالرب يريد بنتًا وأكفًّا حنونة.. والعالم الموحش لا يعرف بكاء البنت.. البنت وجدت كي تكون أمًّا، رغم إرادتها ستكون أمًّا.. الأم

تبكي وحدها في الليل، الأم تنشر أرضها لأصابع الفلاحين المتعَبة، المتعِبة، وتبكي وحدها إن شاءت، لا يهم.. فالعالم حزين ووحيد، والرب يريد بنتًا صغيرة.

لسنا سوى خطأ إذن؟

عرفنا الحزن لا يجيء واضحًا دون لثام فوق وجهه ولا مخفيًّا تحت طبقات شاسعة من الملابس والسماوات والكلام المكدس. إنما، عرفنا الحزن مواربًا يقدم خطوة ويواري خطوة.. عرفنا الحزن يتسلل من قبضات الأيدي المشدودة من القلق، عرفناه يسيل دمعًا جانبيًّا من العيون التي تحاول بصعوبة أن تقتل الغبش الضبابيَّ وتفتح نوافذها لاحتضان النهار.

عرفناه يجيء مثقلًا في خطوات تجر جسدًا كسيحًا وتتقافز بفرح إضافيٍّ، فرح مزيف.

عرفناه في التَّرْك، التَّرْك الذي يواري خلفه رغبة في امتلاك أشياء، نعرف مسبقًا، أنها ليست لنا.. عرفناه في التخلي، طائعين متذمرين، عن أشياء أردنا بشدة امتلاكها. عن حياة رفعت قرب الماء عن أفواهنا لما التمعت أعيننا، مثل كل البرايا الصالحين وطلبنا السقيا، طلبنا التشفي من وجع مكدس.

لسنا سوى خطأ إذن؟ محض خطأ خلفته آلهة قديمة وآباء كثيرون ينحتون وجوهنا في الطين، يحمِّلون أسمال الحزن فوق ظهورنا ويقولون سيروا طائعين نحو النهر واغرقوا.

عرفنا الحزن أصدقاء يحفرون في قلوبنا قبورًا ويدفنون أنفسهم فيها. عرفناه مشانق نتدلى من أعناقها وقت الغروب مثل نوارس حزينة. نوارس ضائعين ضلوا طريقهم وسط البحر، عرفوا أن الوصول إلى ما وراء البحار ليس غاية، ليس وطنًا هذا الذي نصل في النهاية إليه.

أنتم كثيرون، أنتم كثيرون، أنتم أكثر عددًا ونحن محض جيف مقتولة لا تهدئ جوعكم البريَّ للحمنا المسموم.

نحن، يا أصدقاء قلوبنا محض أرانب برية تستلقي دون فزع فوق موائدكم، تهبط على ظهور السفن وتحدق إلى أعين البنادق. تقبل أعين الصيادين وتخطف من فوق رؤوسهم القبعات. تحوم بمرح أسود حول الشباك لتبعد الموت برجاء باهت.. تقول صيرني مهرجًا أو ماسح أحذية أو احبسني داخل إطار فوق سريرك، سأصير مثل اللوحات تمامًا وببراعة سأتعلم التوقف عن الرمش حين تحدق الأبصار إليَّ.

صيرني يراعات واصطدني حين أمر.. لكن النهر، ليس النهر ما أريد أن أغرق فيه بأسمال حزن على ظهري.

تؤلمني المياه. تؤلمني حين أكون فردًا وتؤلمني حين أكون مثل

كل العالمين جماعة. تؤلمنا ويزعجنا سطوع الضوء عبر ظلام المحيط. وتؤلمنا جثثنا حين تتخير موضعًا في الظل بين الطحالب والسمك الرقيق وحين ترسو على السطح غير خجلانة من الموت.

الموت الذي يجب أن نخبئه في قلوبنا مثل عار وننزوي. نمكث في عمق البحر لفترات طوال رغم المياه التي تؤلمنا.. نسبح خلسة نحو طاحونة قريبة ونصير قمحًا لأفواه أمهاتنا الذوَّاقة.

من يريد أن يحدق الناس في جسده حين ينتفخ مثل بالون من شدة الموت؟

من يريد، أيها الآباء الذين يشنقوننا مثل نوارس حزينة، أن يشاهد العيون تحدق إليه وهو يموت متدليًا من مشنقة. أو من الحياة؟ لا، ليس النهر.. وليست البنادق التي تشير إلى عرينا وسط البحر ووسط سماء مكشوفة.

من يريد الموت تحت ظل سماء مكشوفة؟

عرفناه، عرفناه، عرفنا الحزن صبية صِغارًا يحتمون في الظل ويرقبون الدنيا تتمخض فوق حصير، من خلف باب موارب.

عرفناه وكنا نغطيه مثل سوءات أجسادنا بادئ الأمر لكن الناس قد جسدونا حزنًا يسير على قدمين.

كنا حزانى لكن متسترين، ما استطعنا، بأكف مشقوقة.. صرنا، فيما بعد حزانى لكن عراة، يدوسون فوق أقدامهم من الخجل بداية،

وفيما بعد صار عرينا واضحًا ومتباهيًا بسوئه وأخذ يظهر فجأة أمام الصبايا الخجلات ويضحك على صراخهن.

صار حزننا سوادًا يعتم الدنيا لمَّا رجونا ضوءًا خفيفًا، محض ضوء خفيف حُجب أيضًا عن أبصارنا.

نحن قتلة قديسون، أردنا الصلاة أكثر ما أردنا. بنينا معابد طينية وسط الخواء وأردنا آلهة نصلي لها. آلهة لا تعتزل العناية بالعالم حين مجيئنا.. أردنا آباء يبتدئون حياتهم توًّا ويعمرون حياتنا..

أردنا آباء غير ضجرين من الحياة ولا يرسلون بنيهم إلى النهر ليغرقوا بأسمال حزن فوق ظهورهم. أردنا، أكثر ما أردنا، إخوة بأكف غير مجعدة وأصدقاء غير جائعين لارتشاف قلوبنا وأمهات ساذجات لا يقتلن أولادهن من شدة الوعي وينتحرن.

أردنا أربابًا عاديين وأمهات يمتن على أعتاب الستين أو أثناء الولادة. أمهات نغفر موتهن. أمهات لا ينبثقن من عدم ولا يَتُقن إليه. أمهات يبكين أحزانهن أو يدلقنها شتائم فوق رؤوسنا.

أردنا أمهات لا يتركن خلفهن الأبواب مفتوحة في الليل ويسرن نحو النهر، حافيات، بأسمال حزن فوق ظهورهن، ويغرقن.

الأمهات يبسن في الظل

مثل النساء اللاتي يتذرعن بالغيم وبالريح، ويلفظن بذورهن شُعُوبًا شاردة.. مثلهن، مثل النساء اللاتي لسن أمهات لأحد، ولا يرغبن.. ويرين الأطفال الضائعين في الأروقة ولا يقلن: أطفالنا! ولا تهتز قلوبهن، ولا يعدن إلى أسرتهن ويرغبن بواحد.

***

مثل النساء اللاتي لا يشرعن قلوبهن لبذور الغرباء، ويرفعن أوعيتهن بعيدًا عن أفواه العطشى، عن أبناء الآخرين وآبائهم. لسنا أمهات لأحد. ليعثر كل أب على حقل آخر يدفن فيه بذوره، على مركب يحمل له نسله نحو حياة بعيدة.

أو، ليصير هو، حقلًا ومركبًا، ويغرس في قلبه أبناءه، ويغرس حزنه، وشبقه وأمنياته.

فالأمهات مللن أدوارهن، والأمهات سيغادرن. الأمهات سيسحبن أجسادهن من تحت أجساد الآخرين، وينبذن ذكورة العالم.

بأي جسد واهن يسير العالم نحو مقبرته، حين تغادره أمه، حين لا تكون أمًّا بأي حال. تفرش قلبها وتترك العالم يتمرغ في ظلاله، تفرش جسدها للعالم، ولأبنائه من بعده، وفِي حقول الأمهات، يغرس العالم وبنيه بجبروت رايات وأعلام، ويقولون: هذي الحقول حقولنا.

الأمهات رغم إرادتهن صرن كذلك، أُخذن من الحقول صبايا يرعين في مراعي الرب، وعلى فراش الرب، سكبن دماءهن، وحبلن بأبنائن..

لا نحب السهر، وتلك الثعالب الصغيرة في أسرتنا، شيء دخيل. والذئاب التي أرضعناها صِغَارًا، لهثت فوق أجسادنا حين طالت ظلالها قليلًا. والرب نفسه، الذي سكب دماءنا، غفى فوق أثدائنا منذ زمن بعيد..

أين نجفف أنهارنا؟ وهذه الشعوب التي تتناسل على الضفاف، وتصلي للنهر، وتنحر فيه عذراواته، من ينُشها حتى تغادر؟

الأمهات يبسن في الظل، وانكمشن تحت عباءة الأب الواسعة، وتحت ظله، الذي يتمدد ويفيض مثل الماء على العتبات، ومثل الليل، يغزو دون حياء أحلام البنات ويغزو أجسادهن، وحول عيونهن تنام ظلال العالم، وفِي أحداقهن يترسب السواد ذاته.

بأي وهن سيسير العالم نحو مقبرته؟ حين تغادر الأمهات عاريات نحو الضوء أو حين يقتلن أبناءهن، ثعالب الأب الصغيرة؟

بأي صوت راجف سينادي العالم، حين تخلع كل بنت ظله عن أكتافها وترميه مثل شيء بالٍ، حين لا يحتجن إلى أب، ولا إلى رب في صورته، ولا إلى ظلال الأرباب، وحين يصلين إذا أردنَ الصلاة لربة يرتجف قلبها من الحزن أيضًا.

بنات الظل يسحبن أجسادهن نحو الضوء، نحو مراعٍ لا راعيَ يحوم على أعتابها.. وإذا لمحن من الشرفات ربًا هزيلًا ينادي على بناته، يستنكرنه. وإذا بكى ثعلب صغير لا تمتد أيديهن نحو أزرارهن وتفكها، ويقلن: أمهاتك نحن. بل يشردن خائفات، ويتسابقن على قتل الرب الصغير، على وأد الذئب في مهده.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الباب الرابع

كي لا يقولوا فعل، ويفعلوا مثلي

مرت أزمنة كثيرة، مثل قوافل تترقَّصُ بحوافر خيلها، مرت نساء وعربات، وأطفال مروا من هنا، ملطخين بالطين، لا تدخِلهم الأمهات إلى المنازل. مرت أحزان كثيرة، من تلك التي تعلق في العينين، مر انزعاج طفيف إثر التصاق الصوت بالجلد، والرغبة في كشطه، الرغبة في الاختباء في حفر الطريق، من رنين الباعة، من ركض الأطفال، ونباح الكلاب، والأمهات اللواتي يلقين بالسلال من النوافذ، الرغبة في الاحتماء من الانتباه المفرط للأشياء. من البكاء وسط الطريق وأنت تشير إلى السماء تسقط على الأبنية القديمة. هذا جميل، كيف تمشي الظلال دون دبيب، وكيف تهوي الزرقة بتدرج دون أن ينتبه أحد. انظروا، إلى الأصدقاء المشاة، إلى الناس الساهرين على المقاهي، إلى المجانين على الرصيف، الخارجين توًّا من السجون، الذين يصرخون في وجه الفجر.. وفتية على الرصيف المقابل يلعبون الدومينو.

كل شيء لا يمكن احتماله، لكل شيء وقع مسامير تسقط على البلاط.

مرت أيام كثيرة، أيام تراكمت فوق أيام أشقتني، صحو باكر، دون ألم تقريبًا أو اختناق الليل في أوردة الإنسان.. هل عشت ما أظن أني عشته؟ أنفض الصحو الكثير وأتذكر ركامي، أتذكر اسمرار المحيط في عيني الطفل الزرقاء. هل عشت ما يقول الآخرون أني عشته؟ ما يتذكرونه، وما يصفونه بالأشواك التي انغرست في الحافر. مرت سنوات، شفيت من هجران الآباء ومن بقائهم الخانق. صاروا أصدقاء متذبذبين، أو عجائز اخترنا ألا يؤثر تعبهم فينا، ومرُّوا..

أيام على الطرقات، مثل حَمَامات مُتْنَ في الثلج... وأطفال مطفؤون، في الثالثة عشرة، في الرابعة عشرة، لا يريدون شيئًا، ولا حتى أن يكبروا.

كيف تلاشينا بخفوت في العتمة؟ صبية حلموا بتغيير العالم، ويئسوا. شعراء متألمون، تعلموا الضحك. أشخاص متأملون وصامتون كانوا ليصيروا أنبياء، لكنهم خرجوا من عزلاتهم، عمال بناء وباعة يمتهنون الصراخ وآباء يريدون وقودًا وزيتًا للمصابيح.

لن أقول شعرًا، جسدي ثقيل، يُجَرُّ على الأسفلت مخضبًا بالدم.. وأمر أمام المنزل، غرفتي مضاءة، ولا أقول: هذا بيتي.. جسدي يمضي بعيدًا، وأراه، يمر بطرق مجهولة، وأخاف، خوف من ابتعد كثيرًا عن منزله.

لكنِّي لن أقول شعرًا بعد الآن، لن أهدئ طفلًا في داخلي، لأنه مات. ولن أحتمي بالحلم، لأني لم أعد أريد شيئًا. ولن أهرب إلى الخيال، خيالي، لأني قد وصلت إلى حدوده. إنها دائرة، الأيام تدور، الأفكار تكرر نفسها، أنا كنت آخر ومتُّ ثم صحوت، ما أعيشه الآن قد عشته، الأشياء ذاتها تؤلمني، الخوف ذاته، الترقب ذاته، عودة الإله، رحيل الإله، الاكتظاظ بالحلم، تجاوز الطفولة والاعتياد على خيبة الأمل الطفيفة التي تمتزج بالأشياء. أن تحب مرة واحدة ووحيدة، مثلما قالوا. بطزاجة وندرة. ثم لا يكون حب جديد. محض استعادة وتذكر محض تكرار.

لن أرحل، لن أغادر، ولن أحتمي في كهف، ولن أتعفن وحيدًا عند مجرى النهر. لن ألاحق الظلال بعد الآن، ولن أتبع الرب القديم الذي يعلق حول عنقه سلاسل من عظام ويتجول في الغابة. سأبقى هنا، حيث لا يزعجني البقاء ولا يسرني.

أشعل نارًا وأخلق قبائل ترقص حولها.. ما أجمل النار حين لا تنبع من داخل المرء.. ما أجمل أن يكون المرء معافًا، غير ناقم على معافاته.. ألا يشعر بألم بالغ، وأن يمقت فكرة أن يحب المرء آلامه، ويمتزج بها. ابقَ بعيدًا أيها الألم، مثل ثعبان ندفعه بأقدامنا.

الآلهة خرجوا يقرعون طبولهم، ولن أتبعهم.. في قلبي شرارة أطفئها، وتحت أقدامي مشي كثير، لأجل الفداء. لكني أربطها في جذوع الأشجار، حتى يمرُّوا. لن أتبعهم، لن أغني التراتيل، ولن

أفتح عيني للشمس ولن أتطلع إلى أبعد من مكان للنوم وخشائش تختبئ فيها الأرانب وأعواد الصيد وحجارة لإشعال النيران.

سأحرص أن أصير عجوزًا، أن أمضي بعمري حتى نهايته، وسأردد بأني كنت لأصير نبيًّا في شبابي، لولا أني آثرت صيد الأرانب.

احتقرت المجد، واخترت العيش الغريزيَّ، أن يكون إلهي هو ما يبقيني حيًّا.. نيران، سهام لصيد الغزلان، وأرانب في الشباك.

تجنبت النبوة، وقلت: أعرف كل شيء، ولا أبالي.

قتلت ملوكًا لم يأتوا، وأفنيت ممالك لم تأتِ، ولم أعط للآخرين شيئًا، لم أحرك درعًا ولا ذراعًا، ولم أنطق بلغة، هممت، كي لا يقول الآخرون: قال. لم أقل، تواريت في النهار، وكانت يقظتي ليلًا. كي لا ينتبهوا إلى صوت الإله في كلامي، وفي مشيي، وكي لا يقولوا: فعل، ويفعلون مثلي.

تركت العالم على حاله، وهذا مجد آخر، أباهي به. جنبت العالم آلامًا كثيرة، جنبت الآخرين شتاتًا، وأخفيت عنهم الأذى، أنقذتهم من المعرفة، وتركتهم يغسلون ثيابهم عند النهر، ويهشُّون الثعالب. تركت الأرض، خضراء، ورحلت خفية في الليل.. لم أترك أثرًا، دخانًا إثر نار البارحة أو صيدًا مخبأ تحت الأوراق.. رحلت خفيفًا، حاملًا صوتي، مكتومًا، كما جئت به، لم أفرغه.. حاملًا وهجي، حاملًا رسالاتي.. قلت شعرًا، لكن لم يكن شعرًا كثيرًا، كان محض بداية، ثم نفضت يديَّ... ولن أقول بعد الآن شعرًا.

كُتب هذا العهد خلال نوفمبر ٢٠١٦ وإبريل ٢٠١٧.

عدا الخاتمة فقد تمت في يوليو ٢٠١٨، ثم ذهبوا.